بين الرافعى والعقــــاد

للأستاذ محمود محمد شاكر

قرأت ما كتب الأستاذ سيد قطب في العددين السالفين من الرسالة ، وكنت حرياً ألا أعبأ بما يكتب عن الرافعى في أوانِ حولِ وفاته ، وقد تهيأ أهله وأحباؤه وأصحابه تتلفت قلوبهم لذكراه الأولى بعد أن سله الموت من بينهم اغترارآ

والأستاذ سيد قطب قد أبى له حسن أدبه ، وجيل رأيه ، ومروءة نفسه ، ونبل قلبه ، وشرف مقصده ، وإشراق نقده ، إلا أن ينبش ماضى الرافعى وما سلف من أمره ، ليستخرج حلية يتحلى بها إذ يكتب عن خصومة بين رجلين : أما أحدهما — أنسأ الله فى أجله وأمتع به — فما برح يتلطف للناس بما يستجيد من عمل يجدد به مطارف آخرته ؛ وأما الآخر — رحمة الله عليه — فبين يدى ربه يتقرب إليه بعمل قد أبلى به أثواب دنياه . فلولا أن الميت لا يدفع عن نفسه فى ساعة موته مثل الذي كان يدفع فى أيام حياته ، وأن ذكر الحى أقرب إلى الناس من ذكر الميت — لكان جديرآ بنا أن ندع الأستاذ المهذب الفاضل يتكلم بالذي يهوي على ما خيلت له . فليس للأدب اليوم من الحرمة ، ولا فيه من النبل ، ولا عليه من الحياطة والحرص ، ما يحفز أحداً للمراصدة دونه أن يُمتهن أو يسترذل

هذا ... ، وقد جعل الأستاذ الفاضل يستثير دفائن الإحن والأحقاد كانت بين الرافعى والعقاد ، ليتخذ منها دليلَهُ الذى يفزعُ إليه فى أحكامه ! ! على الرافعيّ . لا بل على قلب الرافعىّ ونفسه وإيمانه بعمله وعقيدته فيه ! ! ثم لم يرض بذلك حتى نفخ فيها من روح الحياة ، ما جعلها ممّا يكتبَ الأحياء عن الأحياء للإيلام والاثارة ، لا للجرح والتعديل والنقد ؛ وكأن الفتنة عادت جَـذَعةً بين الرافعى نفسه وبين العقاد . ولقد بدا لبعض الناس رأىٌ فيما كتب الأستاذ المهذب ، ولكنا نفيناه إذ سُئلنا عنه ، فنحن نعلم أن العقاد لا يرضى اليوم أن يكتب مثل هــذا الذى كُتب عن الرافعى . ولقد ساء ظن امرئٍ بالعقاد ألا تكون للموت فى نفسه حرمة ، حتى يكون هو يعين عليه أو يرتضيه أو يسكت عنه إلا سكوت الغضب والاستهانة

فنحن إذ نكتب فى ردّ كلام هذا الأستاذ الفاضل سيد قطب لا نبغى أن نسدّدَ له الرأى فيما يجب أن يرى ، فما علينا ضلّ أو اهتدي ، ولا أن نقيم مذهب الرافعىّ على أصله وقد ذهب سَبيهُ وبقى أدبه ؛ ولا أن نسوء العقاد حفيظة نتوارثها له عن الرافعى أو من ذات أنفسنا ، فما من شيمتنا مثل ذلك ؛ كلاَّ ، بل نكتب لنميط الأذى عن حُرَم الموت ، وكفى بالموت حقاً وجلالاً

ورحم الله الشعبيّ فقد كان يقول : « تعايش الناس زماناً بالدين والتقوى ، ثم رفع ذلك فتعايشوا بالحياء والتذمم ، ثم رفع ذلك فما يتعايش الناس اليوم إلا بالرغبة والرهبة . وأظنه سيجيء ما هو أشد من هذا » ولقد جاء وفات ما نحن فيه ظنونَ الشعبي . فما يتعايش الناس اليوم إلا بثلب الموتى !

وإلا فما الذى رمى فى صدر الأستاذ سيد قطب بهــذه النغضبة الجامحة من أجل العقاد ؟ ألم يكتب الرافعى للعقاد يوم كان علك يكتب ويقول ؟ أولم يكتب العقاد للرافعى ما كتب ؟ ثم نامت الثائرة ما بينهما زمناً كان حده الموت . يقول الاستاذ: إنه — هو لا العقاد — « كان مستعداً للثورة والحنق ، لو تناول بعض هؤلاء — يعنى الرافعى ثم مخلوفاً — أدبه ؛ بمثل هذا الضيق فى الفهم ، والاستغلاق فى الشعور ... » أفكان كلام سعيد العريان — وهو يؤرخ أحقاداً قد سلّها الموت إذ سَلّ أسبابها — هو الذى أثار هذا الحىّ المستعد للثورة على ذلك الميت العاجز عن دفع الثورة ؟ ثم ما الذى يحمله على أن يُلبسَ هذه الثورة جلد النقد ؟ والعجب أن يثير ما كتب « سعيد » حيًّا

نبوغك ، ومن أنوثتها لم نجمك حتى شهدناه مشرقاً فى آداب العرب ، متألقاً فى سماء هذا العصر . ومن غيرك أجدر بأن يحب المرأة ويحن إليها ويحنو عليها ؟ بل ما يليق بالكاتب المبدع أن يعيش فى الأرض التى لا تمطرها المرأة وتزهو على حواشيها النضرة

ليس كل النساء كجوديت ؛ ولكن بين الرجال من هو « لاندرو » ؛ ولن تكون الحرب إلا ليكون السلم ؛ فإذا شئتها عواناً مأعة كحرب البسوس فستجدن من بيننا الكثيرات تقول كل واحدة لك : أنا عدوة الرجل

« دمشق » وداد سكاكيني

ليس شيئاً فى الخصـومة بين الرافعى والعقاد ، وهو ليس يثير العقاد أحدَ طرفى الخصـومة ، وهو الذى يملك أن يقول لسعيد أخطأ أو أصاب ... ! أشهد أن ما بالاستاذ قطب النقد ، ولا به الادب ، ولا به تقدير أدب العقاد أو شعره . فما هو إلا الانسان وجه يكشفه النور ويشف عما به ، وباطن قد انطوى على ظلماته فما ينفذ إلى غيبه إلا علم الله

وأنا أقدّمُ بين يدى كلامى حقيقة لابدّ من تقريرها عن الرافعى والعقاد ، وذلك أن الرافعى — رحمه الله — لو كان يرى العقاد ليس بشىء ألبتة ، وأن أدبه كله ساقط ذاهب فى السقوط ، وأنّ وأن ... مما كان يكتب ليغيظ به العقاد من جراء العداوة التى ضربت بينهما — لما حمل الرافعى عناء الـكتابة فى نقد العقاد وتزييف أدبه وإبطال أصل الشعر فى شعره. ولو كان العقاد يرى الرافعي بعض رأيه الذى كتب لما تكلف الرد على الرافعي ولا التعرض له . وكم من رجل كتب عن الرافعى وعن العقاد ونال منهما وأوجع ! ولأنه ليس يدخل فى حسابهما ، ولا يقيمان لأمثاله وزناً ، ولا يعبآن بقوله ونقده وثورته — فقد تركاه يقول فيكثر فيملّ فيسكُت . ولم يكن بين أحد منهما وبين مثله كالذى كان بين الرافعى والعقاد

فالرافعى والعقاد أديبان قد أحكما أصول صناعتيهما ، كلّ فى ناحيته وغرضه ، وأفنيا الليالى والأيام والسنين فى ممارسة ماهو فيه وإليه ، وكلاهما يعلم عن عمل صاحبه مثل ما يعلم عنه ، ولا يُظن بأحدهما أنه يجهل قيمة الآخر . فلما كانت العداوة بأسبابها بينهما بدأت قوّة تعارضُ قوة ، ورأىٌ يصارع رأياً ، وكان فى كليهما طبيعة من العنف والمُرام والحدّة ، وولع العقاد بإرسال العبارة حين يغضب على هِينتها صريحة لا صنعة فيها ، وأغرى الرافعي بالسخرية والمبالغة فى تصوير ما نصبه لسخره وتهكمه على طريقة من الفن ؛ فمن ثمّ ظهرت العداوة بينهما فى النقد وفى أذيالها أذى كثير وغبار ملؤه القوادع والقوارص من اللفظ ، وعلى جنباته صور ينشئها أحدهما لصاحبه للـكيد والغيظ والحفيظة ، لا يراد بها إلا ذلك . ولقد شهدت أن الذى كان يكتبه الرافعي عن العقاد لم يكن عندى مما يحملنى على الحط من منزلة العقاد التى كان ينزلها فى نفسى ، بل أستيقن أن الذى يكتبه إنما يراد به النيل من غيظ العقاد لا من العقاد نفسه . وعلى مثل ذلك كنتُ أجد ما يكتبه العقاد عن الرافعى ، فلم يكن نيل العقاد من الرافعى — وأنا أحبه — مما يحملنى العداوة له أو يدفع بى إلى الغيظ والحنق والثورة

وخليق بنا وبآدابنا أن نطوى الآن سيئة رجلين قد تفارط أحدهما فى غيب الله ، وبقى الآخر تحوطه الدعوة الصالحة بطول البقاء وامتداد الأجل وسداد العمل

والكلمة الأولى من كلمتى الأستاذ سيد قطب ، إنما تدور رحاها ورحى (بغضائه) للرافعى — أو كما قال — عن نفى الانسانية عن ذلك الانسان رحمة الله عليه ، وخلوه من النفس ، وفقدانه الطبع ، وفقره إلى الأدب النفسيّ — وما إلى ذلك من لفظ قد ضل عنه معناه ، وتهافت عليه حده — وأنه كان (رحمة الله عليه) ذكياً قوي الذهن ، ولـكنه كان مغلقاً من ناحية الطبع والأريحية ، وأن أدبه كان أدب الذهن لا أدب الطبع ، فيه اللمحات الذهنية الخاطفة ، واللفتات العقلية القوية ، ولـكن الذى ينقصها أنه ليس وراءها ذخيرة نفسية ، ولا طبيعة حية ، إلى غير ذلك مما حفظه الأستاذ من شوارد اللفظ ، وأوابد المعانى ... وأسمع جعجعةً ولا أرى طحناً

وأنا كنت أنتظر بالاستاذ أن يأتى فى كلمته الثانية بشىء من النقد يُنسى إليه ما قدم فى الاولى من سوء العبارة وشنعة اللفظ فى ذكر الرافعى الميت ؛ ولـكن خاب الفأل ، وجاءت الثانية تدل من يغفل عن الدلالة البينة ، على أن هذا الاستاذ الجليل لا يزال يستملى ما يكتب من بغضائه . وهان شيئاً أن يكره الاستاذ الجليل رجلا كالرافعى حتى يأكله السلّ من بغضه ؛ ولـكن الامر كل الأمر حيث ذهب يزعم فيما يكتب أن هـذه البغضاء التى يستملى منها هى النقد ، وأن أحكامه على الرافعى إنما هى أحكام قاض قد لزم المتهم حتى أنطقه وأشهد عليه لسانه ، فاستوعب كلامه ، واستنبط الحجة عليه من ألفاظه ، واستوثق للتهمة من قوله ، ثم بنى (الحيثيات) من فحوى عباراته ، ثم حكم وما حكم على المتهم إلا كلامُه ، ولا شهد عليه إلا لسانُه

فلهذا كان علينا لزاماً أن ننظر فى الذى أتى من كلام الرافعى ، ثم قوله فى فيه ، واستنباطه الدلائل منه ، وتحليله نفس الرافعي من لفظه حتى جعله مستغلق الطبع مسلوب العقيدة . ثم هو فوق ذلك لا يزال يبدئ ويعيد فى كلامه ذِكرَ أصدقاء الرافعى